وضع المثقف العربي اليوم

في المقالين التاليين يعالج وضع المثقف العربي في الوقت الحاضر ، مفكران عربي واجنبي . فيتحدث الاستاذ مجدي وهبه عن القلق الذي يستحوذ على رجال الفكر والثقافة ، ويعيده الى اصوله السياسية والاجتماعية والحضارية المختلفة ، ويقارن بينه وبين قلق الجيل السابق قبل الاستقلال ، ويتعرض للواجبات الملقاة على عواتقهم نتيجة له . ويتحدث الاستاذ ب.ج فاتيكيوتيس عن الدور الذي يلعبه المثقفون اليوم في الجمهورية العربية المتحدة ، وعن موقفهم ازاء المشاكل الاساسية « في مجتمع منطلق تحدث فيه الان تطورات رائعة جمة » ، « كعلاقة الانسان بالانسان وعلاقة الفرد بالجماعة وعلاقته بالحكم والحاكم » .

- في قلق المثقفين العرب

مجدي وهبه

اهم ما يشغل بال الكتاب في الوقت الحاضر ثلاث قضايا : القضية الاولى المشكلة القومية ، والثانية المشكلة الاجتماعية الاقتصادية ، والثالثة مشكلة القلق الذي يصحب الانتقال من حالة الى حالة .

ومشكلة قلق المثقفين هي من النوع الثالث ، وقد تعددت في تحديدها المحاولات وان كانت لم توفق واحدة منها بعد الى تحديد ثابت ، وذلك لانها مشكلة متطورة باستمرار . وهذا البحث محاولة من هذه المحاولات ، ويؤسفني ان اقول انه ربما يقضى عليه

بالفشل للسبب المتقدم نفسه . غيران هذا لا يمنعني ان القي اضواء قليلة على هذه المشكلة، هي خلاصة لما ترامى الى اذني مما دار حولي من مناقشات وحوار ، وربما تكون هذه الخلاصة شبه نبراس يستنار به او وثيقة يعتمد عليها المؤرخ في المستقبل .

ويجدر بنا بادىء ذي بدء ان نحدد معنى « المثقفين » ؛ فمن هم المثقفون ؟ ان كلمة المثقفين يقابلها في اللغات الاوربية كلمة روسية هي « الانتلجنسيا » ، وقد شاع استعمالها في جميع اللغات الاوربية الحديثة . ويراد بهذا اللفظ النخبة المثقفة التي توجد بصورة من الصور في كل انواع المجتمعات ، ولكن هذه النخبة بوصفها هيئة ذات وظيفة اجتماعية سياسية متميزة لا توجد الا في المجتمعات النامية ، اي تلك التي تدفع عمداً الى المدنية الحديثة بسرعة غير طبيعية . اما المثقفون في غرب اوربا وامريكا الشمالية ، اي في البلاد الصناعية المتقدمة ، فهم جزء لا يتجزأ من الطبقة المتوسطة فيها ؛ واما المثقفون في المجتمعات النامية التي يندر فيها وجود طبقة متوسطة مستقرة ، فهم يكونون فئة خاصة متميزة عن مجتمعهم .

والذي حدث في غرب اوربا هو ان النخبة المثقفة نمت نمواً طبيعياً مع المجتمع كله ، فقد كانت في العصور الوسطى دينية النزعة ثم تطورت الى حالتها المدنية الحاضرة . ومما لا شك فيه ان الثورة الصناعية بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عجلت في حدوث هذا التطور ، اذانها اخلقت طلباً لم يعهد من قبل لخبرات جديدة وقديمة في الحياة العامة .

كان التعليم الحديث في المجتمعات النامية شرطاً مؤهلا لصاحبه في الانتماء الى فئة المثقفين ، ولكن العكس لم يكن صحيحاً ، فلم يكن كل من تعلم تعليماً حديثاً يدعى مثقفاً ، ذلك لان همّ هذه المجتمعات كان منحصراً في اعداد موظفين وخبراء في العلوم التي تنهض بالدولة ، وهذا ما حدث في الامبراطورية الروسية في عهد بطرس الاكبر ، وفي الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني ، وفي اليابان على ايدي المصلحين اليابانيين في القرن التاسع عشر .

في ضوء ما تقدم نستطيع ان نعرّف المثقف بانه شخص متعلم تعليماً حديثاً ، يهتم اهتماماً خاصاً بالافكار السياسية والاجتماعية ، ويتميز عن غيره من المتعلمين في مجتمعه باهتمامه بالمسائل والافكار العامة ، لا بنوع تعليمه ولا درجة امتيازه العقلي . فالعالم المنقطع لعلمه والذي لا يهتم بالشؤون العامة لا يعتبر بهذا المعنى مثقفا ، اما الموظف الذي لا تزيد درجة

تعليمه عن المستوى الثانوي فيعدّ مثقفا اذا كان يهتم بالمسائل السياسية والاجتماعية المتعلقة بمجتمعه . وعلى هذا فكثير من الحائزين على جائزة نوبل في العلوم لا يعـــدون مثقفين ، والشهيد لومومبا يعتبر من غير شك مثقفاً ؛ وفي العالم العربي نستطيع ان نضمّ جميـــع من اشتركوا في الحركات القومية ممن حصلوا على تعليم حديث الى فئة المثقفين .فالمدنيون الذين قادوا الثورة في مستهل القرن العشرين ضد الدولة العثمانية والاستعمار البريطاني ،والعسكريون الذين واصلوا هذه الثورات حتى بلغوا اهدافها الحقيقية ، والاحزاب التي نافست هاتين الطائفتين ، كالاخوان المسلمين والشيوعيين والبعثيين والقوميين السوريين ، كل هؤلاء من فئة المثقفين .

ويبدو من هذه الامثلة ان الصبغة السياسية كانت تسود تفكير المثقفين ، غير ان طائفة منهم اهتموا بالاضافة الى السياسة بالمسائل الثقافية العامة المترتبة على اثبات وجودنا السياسي. ففي مصر مثلا نجد جيلا من المثقفين ، من امثال الشيخ محمد عبده وقاسم امـــين واحمد لطفي السيد ، كان يرى ان الثقافة والاصلاح الاجتماعي همـــا الوسيلة للتحرر السياسي : فالشيـخ محمد عبده كان يعتقد ان التربية الصحيحة هي الوسيلة الناجعة للاستقلال السياسي، لذلك اهتم اهتماما خاصا بانشاء المدارس والقاء الدروس في الموضوعات الثقافية المختلفة ، وقاسم امين بحث عن ضالته في الاصلاح الاجتماعي وتحرير المرأة ، واحمد لطفي السيد اتخذ الفلسفة اليونانية القديمة طريقا الى هدفه . ثم خلفت هؤلاء طائفة من المثقفين حـــذوا حذوهم : فطه حسين بجانب اسهامـــه في السياسة عميد للادب العربي ، وعباس محمود العقاد وابراهيم المازني بالاضافة الى ميولهما السياسية يعدّان من الكتاب الممتازين ، والشيخ مصطفى عبد الرازق شغل ذهنه بالتفكير في الفلسفة والفرق الاسلامية بالاضافة الى نزعته السياسية . وقل مثل ذلك في عدد عديد غيرهم من المثقفين . والذي نستخلصه من ذلك ان فئة المثقفين هذه لم تكن متخصصة في السياسة ، بل كانت تهتم ببلورة مستقبلنا الحضاري من جميع نواحيه ، فهي بذلك تعتبر الرائدة في هذا الاتجاه . ومرجع ذلك ــ فيما اعتقد ــ الطريقة التي نشأوا عليها ، فقد كانت العصامية هي الصفة الغالبـــة في تفكيرهم ، فاغلب هؤلاء تربوا تربيـــة فردية خالصة ، فقد كان التعليم في الازهر في وقتهم يجري على السنن الفردي ، فيختار الطالب مكان الدرس وزمانه ومدرسه وكتابه ؛ فضلا عن ان الثقافـــة الاسلامية تنظر الى الحياة نظرة شاملة ، ومن الطبيعي ان طلابهـــا يهتمون بالحضارة جملة

واحدة لا بجزئياتها وتفصيلاتها . ويتميز هذا النوع من المثقفين عن مثقفينا المعاصرين ، فاننا نكاد الآن نصب العقول في قالب واحد ونصبغها صبغة واحدة ثم نجعلها تتخصص بعد ذلك في جزئية من الثقافة العامة ، على العكس من نظرة الجيل السابق فقد كان بصدد تخطيط وخلق لحضارة جديدة شاملة ورثها عن تعاليم الدين وعن الموسوعات التي خلفها القدامى من العلماء الاعلام والادباء النابهين . وكان هؤلاء بطبيعة الحال في قلق دائم بسبب المسؤولية الكبرى التي القيت على عواتقهم ، فقد وجدوا انفسهم في معمعة الحياة العامة بعد ان كانوا مقصورين في دائرة الحياة الروحية والفكرية المجردة . فايام كانت البلاد العربية ولايات تابعة للدولة العثمانية كانت السلطة الروحية فقط في ايدي المثقفين العرب ، اما السلطة الزمنية فكانت في ايد غريبة عن البيئة ؛ واما اللغة الرسمية فكانت التركية تنافسها احيانا الفرنسية ثم الانكليزية ، غير ان العربية ظلت لغة الثقافة والدين . ثم ثار العرب على هذا الوضع ودفعوا بمثقفيهم الى طليعة المعركة ، فبعد ان كان هؤلاء الرواد يقفون من الحكم موقفا سلبيا اصبحوا يهاجمونه مهاجمة ايجابية ، غير ان هذه الايجابية خلقت في نفوسهم نوعا من القلق يمكن ارجاعه الى الاسباب الآتية :

اولا : الكفاح في سبيل اخراج المستعمرين من البلاد العربية : ففي حالة مصر خلف الاتراك فيها الانكليز ، فكان كل جهاد المصريين موجها نحو اخراج الانكليز منها واقامة دولة مستقلة تقف على قدم المساواة مع الدول المستقلة . اما في حالة البلدان العربية الاخرى فقد كشفت هذه البلدان زيف دعوى الدولة العثمانية في حكمها لها باسم الخلافة الاسلامية ، ونتيجة لهذا كان المصري يقاوم المستعمر الاوربي بقيم اوربية ، لانه كان يرغب في ان يدخل بلاده في دائرة الحضارة الحديثة ذات الصبغة الاوربية الغالبة . اما العربي في البلدان الاخرى فكان يكشف زيف اسلامية الدولة العثمانية بقيم اسلامية . ومن هنا نبتت الحيرة والقلق في نفس العربي ، فالمصري اصبح يفكر في المدى الذي يتقيد فيه بالتراث الاسلامي ، والعربي الآخر نشأ قلقه من تفكيره في مدى استعانته بالحضارة الاوربية .

ثانيا : والسبب الثاني من اسباب قلق العرب المثقفين وجود فجوة ثقافية بين هذه الفئة وجماهير الشعوب العربية : فقد اقتضى هذا من المثقفين ان يبذلوا قصارى جهدهم في تنوير الجماهير حتى يظفروا بمساعدتهم ، فضلا عن ان الجماهير تخضع عادة للحاكم صاحب السيادة

والسلطان . هذا الى ان القومية العربية في بعض مناطق الهلال الخصيب نبتت في ايدي قلة من العرب المسيحيين الذين حاولوا ان يقيموا العصبية القومية مكان العصبية الدينيـــة ، وكان من العسير بالطبع ان تتحول الجماهير التي عاشت قرونا عديدة في ظل العصبية الدينية الى العصبية القومية .

ثالثا : وجود فجوة بين النظام التربوي والحكم السياسي : فقد كان اغلب الحكام في البلدان العربية ممن لا يرون في استنارة الجماهير مصلحة لهم ، لذلك قصروا النظام التربوي على تخريج موظفين اداريين للدولة ، غير ان التعليم ذاته فتح آفاقـــا لم تدر بخلد الحكام . زد على ذلك ان البعثات التي كانت ترسل الى اوربا في عهـــد محمد علي واسماعيل كانت كلها ترمي لخدمة الجيش ، اما في بدء عهد الاحتلال فكان الطلبة يرسلون الى اوربا لمجرد تعلم اللغة الانكليزية ليتمكنوا من مخاطبة رؤسائهم الانكليز ، فكثير من كبار رجال التعليم في وزارة المعارف المصرية لذلك العهد لم يحصلوا على ازيد من شهادة تثبت حضورهم في بعض الدروس او شهادة وزارة المعارف في التربية . واذكر ان المغفور له الدكتور عـــلي مصطفى مشرفه ، الذي كان من اوائل من حصلوا على اكبر دكتوراه في العلوم من انكلترا، كافح طويلا في سبيل السماح له بالحصول عليها ، كما عانى الامرين بسبب مطالبتـــه بالدرجة الرابعة ، وهي درجة لا يزيد مرتبها عن خمسة واربعين جنيهـــا مصريا . ومن هنا نشأت ازمة الثقة بين المثقفين والحكام من المواطنين والمستعمرين .

رابعاً : شعور المثقفين بانهم ينتمون ثقافيا الى حضارة اعلى من حال البيئة التي يعيشون فيها : فاذا هجر المثقف بيئته شعر بالغزلة والضيق الناشيء عن عدم الانتماء ، واذا استمر فيها شعر بالحيرة والقلق لانه يعيش في غير وسطه ومستواه .

خامسا : اشعار المستعمر للمثقف بانه دائما تابع ، وانه مهما كدّ واجتهد لا يمكن ان يصل الى المستوى الثقافي الذي وصل اليه مستعمره . وترتب على هذا ان حاول المثقف ان يعالج شعوره بالنقص ، ولكنه بدلا من ان يكون ذاتيا في محاولته قلد المستعمر في طرق حياته واساليب تفكيره حتى يبلغ مستواه، فزهدت قيمته،واصبح انتاجه سطحيا . وعلاجا لحالته هذه اخذ يقتبس قشوراً من ثقافات مختلفة دون ان يتعمق في واحدة منها . اضف الى ذلك ان هؤلاء المثقفين لم يتبعوا طريقاً واحداً في التقليد ، فبعضهم اخذ عن الثقافة

الانكليزية ، وبعضهم عن الفرنسية ، والبعض عن غيرها ؛ فتعددت النظريات واختلفت المناهج ، وادى ذلك الى فوضى ثقافية بين من يريدون ان يصلحوا احوال بلادهم .

ولكن الثورة التي قام بها المثقفون المدنيون هؤلاء كادت جذوتها تخبو ، او هي خبت بالفعل ، لعوامل كثيرة اهمها : استمرار وجود العنصر المستعمر في البلاد العربية ، وتعدد الاحزاب ومنافساتها في تولي الحكم ، واستهتار الملوك والحكام واستبدادهم . فزاد قلق المثقفين وتوقعوا شر النتائج لبلادهم ، وكان اقواهم احساساً بخطورة الموقف واكثرهم استعداداً له في هذه البلاد فئة المثقفين العسكريين ومن نحا نحوهم من المدنيين ، فانتقلت القيادة الى ايديهم ، ونجحوا نجاحا باهرا في تطهير بلادهم من المستعمرين والمستغلين . بيد ان المسؤوليات التي القيت على كواهلهم تنوء بحملها امم ، لا طائفة من امة واحدة . فقد خلف لهم اسلافهم فوضى في الحكم ، وفساداً في الادارة ، وظلماً في توزيع الثروة . وكان عليهم ان يواجهوا عجزاً في الصناعة والزراعة والتجارة ، وان يقاوموا اعداءهم في الداخل والخارج ، ويحبطوا المؤامرات التي تدبر ضدهم ، ويمولوا المشروعات الضخمة التي تحتاجها البلاد ، ويحصلوا على العملة الصعبة والخزائن خاوية . كل ذلك جعلهم في قلق مستمر وسعي متواصل .

واذا اتجهنا الى الطوائف الاخرى من المثقفين في هذه البلاد بعد تسليمهم القيادة الى العسكريين ، وجدنا اغلبهم في حيرة وارتباك لا يدرون ماذا يفعلون بعد ان منوا بالفشل في مساعيهم وافلت زمام القيادة من ايديهم ، فوقفوا موقف المنتظر المترقب ، يتنازعهم خاطران : الخاطر الاول اعتقادهم بعجز العسكريين عن القيام باعباء الحكم ، والخاطر الثاني كيف يعدّون انفسهم لتولي الحكم اذا ما فشل العسكريون كما فشلوا انفسهم في الوصول بالسفينة الى برّ السلامة والاستقلال . ولكن العسكريين حملوا لواء الحكم في جرأة وثقة ، وقاموا بمشروعات تتقطع دونها الاوهام .

واما المثقفون في بعض الاقطار العربية الاخرى فلا يزالون يقفون من حكّامهم ومن الايدي الخفية التي تحركهم موقف المتربص المتحين للفرص ، لم تمكنهم وسائلهم بعد من اشعال ثورة تطيح بالآثار المتغلغلة في النفوس والتي خلفها عهد الاستعمار .

واذا كان لنا ان نعرض لاسباب القلق الذي عمّ المثقفين العرب بعد استقلال بلادهم، فاننا نجد ان من اسبابه عدم تحديد المثقفين لماضيهم الحضاري ، فالبلاد العربيـــة توالت عليها حضارات مختلفة في عصور متباينـــة ، ففي مصر مثلا توالت عليها حضارة مصرية قديمة فرومانية فاسلامية عربية ، وتأثرت منذ الحملة الفرنسية بالحضارة الاوربية الحديثة . فعلى اي اساس تبني الجمهورية حضارتها المستقبلة ؟ أعلى الحضارة المصرية القديمة ام على الحضارة العربية الاسلامية ام على الحضارة الاوربية الحديثة ؟

ولبيان ذلك ذهب فريق الى انه يجب ان يحصر الدين في اضيق حدوده حتى لا يتجاوز العبادات والاحوال الشخصية ، اما نظم الحكم والقوانين وغيرها فيجب ان يلجأ فيها الى الغرب . وارتأى فريق ثان ان الاسلام يحمل في ثناياه عنصر المرونة ، وهو الاجتهـــاد ، فهو صالح لكل زمان ومكان . ودلل على رأيه بأن النبي العربي اباحه حينما بعث معاذ ابن جبل ليقضي بين الناس في اليمن ، فقال له : بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم تجد في سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رأيي ولا آلو ، فربت النبي على كتفه قائلا : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله الى ما يرضي رسول الله .

واحتج هذا الفريق لرأيه كذلك بأن الخليفة عمر بن الخطاب حينما فتح مصر وغيرهـــا واجهته ملايين المسائل التي لم يألفهـــا في بلاده ، ولولا الاجتهاد لوقف المسلمون حيالها صامتين جامدين .

ويستدل ايضا بأنه في عهد الائمة الاربعة كان هناك اهل الرأي الذين كانوا يلجأون الى القياس اذا اعوزهم النص في الكتاب والسنة ، كما وجد اهـــل الحديث الذين كانوا يتمسكون بالنصوص ، وعلى رأس الفريق الاول ابو حنيفة ، وامام الفريق الثاني مالك ابن انس .

ومن هنا ندرك ان الحضارة المصرية القديمة استبعدت من ميدان النقاش لطول الزمن الذي يفصلنا عنها وضعف الصلة بيننا وبينها ، وان الجدل انحصر في حضارتين اثنتين : حضارة عربية اسلامية ، وحضارة اوربية حديثة هي وريثة الحضارتـــين القديمتين الاغريقية والرومانية .

هـــذه على كل حال مشكلة يجب ان نحدد موقفنا منها . وليس معنى هذا ان تكون ثقافتنا في نظر هذا الفريق او ذاك اسلامية عربية او اوربية خالصة ، فالحضارات تتداخل ويتأثر بعضها ببعض ، والتقليد احيانا واجب بشرط ان يكون مصحوباً بتفكير واقتنـــاع لا ان يكون تقليداً اعمى . وتقليد الحسن من كل حضارة واجب ، على ان نخضعه لظروفنا المحلية . واحدث مثال يحضرني لهذا « المعهد القومي للادارة العليا » في الجمهورية العربية المتحدة . هذا المعهد انشىء منذ خمسة عشر شهراً على غرار معهد جامعة هارفارد الامريكية، وقدم في بدء تأسيسه برنامجين للادارة حاضر فيهما مجموعة من الاساتذة الامريكيين قاموا بتحمل العبء الكامل لهذين البرنامجين ، واقتصر عمل الاساتذة المصريين المتخصصين على اكتساب الخبرات ؛ وكانت جميع الحالات والابحاث التي تدرس معتمـــدة على المادة الاجنبية . وبعد صدور القرار الجمهوري بالمعهـــد اهتم ببحث حالات من البيئة المصرية بحيث تضفي قسطا اكبر من الواقعية على المناقشات التي تجري في البرامج التدريبية ، لان دراسة المشكلات المحلية تلعب دوراً هاماً في اقتصاديات البلاد ، فانها تحل مشكلات قائمة بالفعل ، اما دراسة المشكلات الاجنبية فانها وان كانت تحل مشكلات مماثلة للمشكلات المحلية الا انها تختلف عنها في التفاصيل والنظم الاقتصادية التي تعيش فيها .

والذي يشاهد الآن في البلاد العربية هو انها ورثت عن عهد الاستعمار قشور الحضارة الاوربية لا لبابها ، واقتبست الشكل ولم تعن بالروح والجوهر ، واننا طبقنا نظمهـــا وقوانينها من غير ان نفكر فيما بيننا وبينها من اختلاف في التراث والظروف المحلية. فالنظم التربوية في البلاد العربية مثلا نسخة طبق الاصل عن النظم الغربية ، والاختلال الذي نلحظه الآن في هذه النظم وكثرة التبديل والتغيير فيها منشؤه اننا لم نراع عند اقتباسها ما يصلح منها لبيئتنا المحلية او اننا طبقنا الشكل ولم نفهم الروح والجوهر . وجغرافية اوربا وتاريخها كان يعنى بهما الى عهد قريب اكثر مما يُهتم بجغرافية البلاد العربية وتاريخها ، والمدارس الاجنبية في هذه البلاد كانت مناهجها تشبه الى حد كبير المناهج الدراسيـــة في انكلترا وفرنسا ، كما كانت تتجاهـــل البيئة التي تعيش فيها تمام التجاهل . نعم ان بعض الدول العربية قد خطت خطوات موفقة في سبيل التخلص من الشوائب التي خلفها الاستعمار ، وفي اقلمة النظم والقوانين ، وولوج ابواب كثيرة للرخاء والتقدم الاجتماعي والاقتصادي ، ولكن ما زلنا بحاجة ماسة الى مضاعفة الجهود المتواصلة حتى تكون حضارتنا العربية مستمدة من

تراثنا العظيم وممتزجة بخير ما يوجد في الحضارات الاخرى بعد اقلمته واخضاعه لظروفنا المحلية . كذلك الصراع بين القديم والجديد سبب من اسباب القلق : فقد ورثت البلاد العربية فيما ورثته من العهود السالفة عادات واساليب واخلاقا من العسير — ان لم يكن من المستحيل — ان نقتلعها من جذورها بعد ان رسخت وتغلغلت في نفوس اصحابها . وحال العرب بعد استقلال بلادهم غيره قبل الاستقلال ، فقد اختلفت الاهداف وتباينت المثل ، وحلت الاشتراكية العربية محل الرأسمالية العربية في بعض نواحي الشرق الاوسط ، لذلك كان لا بد من تغيير النظم والقوانين واساليب الحياة ، وان يتخلق الناس بأخلاق ويتعودوا عادات غير التي ألفوها في عهود الاستعمار . ومن هنا كانت مسؤولية القائمين بالحكم في هذه البلاد اعظم وأشق ، لان واجبهم لم ينحصر في مجرد تخطيط نظم ووضع مبادىء وتحديد اهداف ، بل اصبحت مشكلتهم الكبرى في كيف يطبقون هذه النظم وينفذون هذه المبادىء والاهداف في مثل هذه الظروف .

وقد كان المثقفون عامة في الماضي عنصراً ثورياً خارجاً على الاوضاع في العهود الاستعمارية ، فلما جاء الاستقلال الحق على ايدي طائفة منهم وجد الباقون انفسهم فجأة في وضع جديد هو تحقيق اهدافهم الثورية ، الامر الذي ادى الى فراغ في تفكيرهم وشعور بضرورة ان يكيفوا انفسهم حسب البناء الحضاري الجديد بعد ثورة لم يقوموا هم بها . ونتج عن هذا ايضاً شعور بالضيق لانهم اصبحوا غير مهتمين بالدرجة التي كانوا يتوقعونها ، ووجدوا انهم بين امرين : اما ان يكونوا مجرد دعاة للعهد الجديد ، واما ان يقفوا منه موقفاً سلبياً . اما الدعاة فلم يشعروا بأنهم مستقلون في افكارهم حتى لو كانوا يدينون بمبادىء العهد الجديد واهدافه ، واما السلبيون فلعدم مرانهم الذهني جفت اقلامهم وكسدت عقولهم . وكلا الفريقين يعلم انه في مراحل تطور الشعوب النامية ، ومنها الشعب العربي ، تظهر الجماهير ميلها الشديد لتلقّي اكثر ما يمكن من المعلومات والحقائق لا لابداء الآراء ومناقشتها ، فتنقلب بذلك وظيفة المثقف من صاحب رأي الى ملقن للمعلومات الحديثة بين جماهير الشعب في شتى العلوم والفنون . ومع ان هذا قد يتفق مع ميول بعض المثقفين الا ان الكثير منهم يشعر ازاءه بالضيق والملل . فبعد ان كان المثقف يخاطب احيانا مجموعة خاصة من الناس ، ويواجه احياناً جماهير الشعب لاثارة الوعي بينهم ، اصبح الوعي منتشراً .

غير انه وُجد تعطش جديد للمعرفة بين جماهير الشعب ، فكان على المثقف ان يطفىء هذا الظمأ ان اراد ان يحظى باهتمام الناس ، ولم يكن المثقف مدفوعا الى هـذا بضغط الحاكم وقسره ، انما برغبة الجماهير وشعورها بالحاجة الى المعرفة – وهذا يفسر لنا السبب في نشر آلاف الكتب والبرامج الاذاعية والتليفزيونية التعليمية ، ذلك لان الجماهير تفهم في المثقف انه محيط بكل شيء ، فهم لا يكتفون منه بمجرد الكتابة في موضوع واحد بل يطلبون ان يكون شبه موسوعة جامعة لكل موضوع ، وأدّى هذا الى جمعه الآراء وتصنيفه الحقائق دون ان يكون له رأي او بحث معين فيما يجمع او يصنف ، وهـذا ولا شك يشعره بضآلة نفسه امام نفسه .

ولما شعر المثقفون بفشلهم بسبب الخلافات التي نشبت بينهم وفسح الطريق للمستعمر والمستغل ليفسد عليهم خططهم ، تلقف لواء الثورة من ايديهم طائفة منهم هي طائفة العسكريين في بعض البلدان العربية . وترتب على هذا انضعفت او انعدمت ثقةالعسكريين القائمين بالحكم في اغلبالمثقفين ، وان كانوا قد استعانوا ببعض منهم . والنتيجة الحتمية لهذا هي شعور هذه الاغلبية بالخيبة والضيق ، واحتمال الاقلية التي وليت الحكم الاعباء التي تثقل الكاهل . وحتى من استعان به العسكريون من المثقفين المدنيين كان يعمل داخل اطار محدود السعة والجوانب ، وعليه ان يلتزم البقاء فيه دون ان يتجاوزه الى خارجه . اضف الى ذلك ان المثقف في بلداننا العربية يملؤه الغرور لانه يقيس نفسه عادة بالمجموع الذي يعيش بينه ، ولانه يعتقد في نفسه انه وصل الى اعلى درجات الكفاية والمعرفة . فاذا شعر بأنه يعمل فيدائرة محدودة دونان يرسمها هو نفسه لنفسه امتلأت نفسه حزناً وكآبة . ومما لا شك فيه ان الثورات تصحبها عادة التقلبات وكثرة التغيير والتبديل ، لان ثقةالقواد لا تستقر في طائفة معينـة الا بعد انقضاء زمن كاف وحدوث تجارب عديدة . فالمثقف – حتى من استعان به الحكام من المدنيين – يكون مركزه في هذه الحالة قلقا وعرضة في كل وقت للتغيير والتبديل . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان قلة الافراد الموثوق بكفايتهم وامانتهم من جانب القادة والحكام تضطرهم للقيام بأكثر من عمل واحد ؛ اما غير الموثوق بهم فانهم لضآلة ما يتقاضونه من المرتبات والمعاشات يلجأون لمزاولة اعمال عديدة مختلفة قد لا يكون بينها تجانس وانسجام . ونتيجة هذا السطحية وعدم التعمق في البحث والدرس المتخصص .

وهناك سبب آخر لقلق المثقفين في عصرنا هذا ، وهو يعمّ جميع المثقفين بعد اختراع القنبلة الذرية : فقد اصبحت حياة الناس قلقة مهددة ، وأضحى مصيرهم متوقفاً على ارادة قلة من القادة ، فشعر المثقف مع غـيره من الناس بالضعف والضيق وانه لا حول له ولا قوة ، فلم يستطع اكثر من ان يتظاهر مع غيره ، او يسطر احتجاجا في الصحف ، مع تيقنه من ان تظاهره او احتجاجه لن يغير من ارادة القلة التي بيدهـا محو الحياة من على سطح الارض . غير ان المثقف العربي لا يشارك زميله الاوربي في هذا النوع من اليأس ، لان القضية القومية لا تزال تطغى على كل شيء يشغل ذهنه ، فان مأساة فلسطين اهمّ في نظر المثقف العربي من الاخطار النووية ، وكذلك الاعتداء الثلاثي اثّر فيه تأثيراً اقوى من تأثره بالحرب الباردة بين الشرق والغرب . ورغم انه تثقف ثقافة اغلب عناصرها غربية ، الا انه يشعر بأن جميع الآلام التي يعانيها مصدرها اوربي ، لذلك نراه يحاول ان يضـع لنفسه نظريات ومثلاً مشتقة من ثقافته وان كانت تغاير نظائرها في ثقافـة اوربا : فهو اشتراكي عربي في مصر وبعثي في العراق وسورية ، ولكن لا يوجد تعاون ولا تعاطف بين اشتراكية العربي واشتراكية اوربا ، فحزب العمال البريطاني ، والاشتراكيون الفرنسيون ، وحتى الاحزاب الشيوعية اعترفت بدولة اسرائيل ، وبادلتهـا الكثير من العطف ، ومن سخرية القدر ان رئيس وزراء فرنسا ايام الاعتداء الثلاثي على مصر كان اشتراكيا . فالمثقف العربي كان مضطراً ان يبلور مذاهبه العامة ، اشتراكية او غير اشتراكية ، بمعزل عن المذاهب الفكرية في اوربا . زد على ذلك ان من اسباب عزلتنا اننا ننظر الى الحضارة الاوربية ككلّ على انها حضارة صناعية تقدمية ، فلا فرق في نظرنا بين شيوعيها وغربيها من هذه الناحية . وهذا موقف لا يرتضيه المثقفون الغربيون الذين يطالبوننا بالانحياز اما الى الشرق واما الى الغرب .

هذه هي خلاصة القلق الذي لحق المثقفين العرب في عهد الاستعمار وبعد الاستقلال . ولنا ان نتساءل في ضوء ما تقدم عما يجب عمله ازاء ما بسطناه من ظروف واسباب .

ولعلاج هذه الحال ارى ان على المثقف العربي ان يقبل الاوضاع الحاضرة بوصفها مرحلة نموّ وتكتل وجمع للكلمة وتثقيف عام للامة بأسرها ، فعليه اذاً ان يهيء نفسه لمدة

جيل على الاقل لأداء واجبه كملقن للمعلومات ومعلم لجماهير شعبه المتعطشين للمعرفة الحديثة، فهذه وظيفة فرضها التاريخ عليه ولا مفرّ من ادائها . ولما كان مستواه الثقافي يختلف عن مستوى الجماهير التي يعيش بينها ، فعليه كذلك ان يقيم جسراً ثقافياً بينه وبين هذه الجماهير، ولو كان هذا على حساب تعمقه في البحث والدرس . وفي قيامه بهذا الواجب يحرز بطولة لا تقل في قيمتها عن بطولته في اثارة الثورة وقيادتها ايام الاستعمار . فاذا لم يتأتّ له ذلك فعليه ان يتأمل في نفسه وفي تاريخه وفي الملابسات التي ادت الى ما هو عليه وما هي عليه بلاده ، وبذلك يسهم في الحضارة الفكرية العربية الحديثة بعنصر جديد هو تربية ملكة النقد الذاتي التي كنا نفتقدها اثناء اثارة الوعي بين الجماهير وحين تلقينها المعلومات والحقائق . فهناك اذاً مكان في المجتمع العربي الجديد للمثقف المتأمل والمثقف المنفذ لمقتضيات ثورتنا الجديدة .